مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 02 عدد خاص ص.ص:407-426

تجليات الأزمة في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية المراسيم والجنائز لـ بشير مفتي أنموذجا.

The manifestations of the crisis in the contemporary Algerian novel the novel of ceremonies and funerals by Bashir Mufti as a model

أميرة تمرة [*1] ، جامعة الشلف، (الجزائر)، a.temra@univ-chlef.dz

أحمد عراب [2]، جامعة الشلف-، (الجزائر)،arabahm2@gmail.com

مخبر تعليمة اللغات وتحليل الخطاب –الشلف-

تاريخ إرسال المقال: 20-08-2021 تاريخ قبول المقال: 13-10-2021

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على فترة من الفترات الحرجة التي عرفتها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، والتي شهدت ظهور نمط جديد من الكتابة الروائيَّة وسميَّت بـ"رواية الأزمة" التي خاض في غمارها العديد من الروائيين، محاولين تصوير الواقع الاجتماعي والسياسي والتاريخي الذي خيم على المجتمع الجزائري، فكانت رواية الأزمة سمة جديدة في مسار الإبداع الجزائري، حيث ساهمت في تفجير قرائح الأدباء الذين أطلقوا العنان لتصوير مأساة الشعب الجزائري، والتأريخ لمحنة الجزائر أثناء العشرية السوداء، ونسعى من دراستنا هذه الوقوف على نص روائي إبداعي استطاع تصوير معالم الواقع الجزائري، فكانت رواية"المراسيم والجنائز" خير نموذج على تجلي الأزمة فيها.

الكلمات المفتاحية: رواية الأزمة، العشرية السوداء، المراسيم والجنائز، بشير مفتي.

Abstract:

This article aims to shed light on one of the critical periods that Algeria experienced during the French occupation, which witnessed the emergence of a new style of fiction writing called the "crisis novel", in which many novelists fought, trying to portray the social, political and historical reality that overshadowed society. The Algerian novel, the crisis novel was a new feature in the path of Algerian creativity, as it contributed to the explosion of the writers who gave free rein to portray the tragedy of the Algerian people, and the history of Algeria's plight during the black decade**.** Ceremonies and funerals" is the best example of the manifestation of the crisis in it.

Key words : The Crisis Novel, The Black Decade, Ceremonies and Funerals, Bashir Mufti.

* أميرة تمرة.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2021 المجلد: 04 العدد: 02 عدد خاص ص.ص:407-426

مقدمة:

يعتبر الأدب الجزائري المعاصر–شعرا كان أم نثرا– مرآة عاكسة للأحداث (السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية...) التي عاشتها الجزائر خلال فترة التسعينات من القرن 20، وقد تجلى ذلك في العديد من الأعمال الأدبية، وكانت الرواية من الأجناس الأدبية التي جاءت معبرة بشكل كبير عن الواقع المرير الذي مرت به الجزائر" لقد سايرت الرواية الجزائرية الواقع، ونقلت مختلف التغيرات التي طرأت على المجتمع، بحكم الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، ومن الملاحظ أن الرواية الجزائرية صبغت بصبغة ثورية خاصة الثورة ضد الاستعمار كما سايرت النظام الاشتراكي، وهذا ما نجده في عقد السبعينات، ودخلت الرواية فيما بعد مرحلة جديدة فيها ثورة ونضال وإنهزام؛ إذ انطلق الكاتب من الواقع الذي عاشه في زمن الأزمة فاصطلح عليه أدب الأزمة"[1]، وبالتالي فالرواية كانت لها الرّيادة في التعبير عن الأزمة الجزائرية، فهي بمثابة الوعاء الذي احتوى كل تلك الأحداث ونقلها بحذافيرها.

والجدير بالذكر أن الرواية صورت لنا واقع الأزمة بكل فظاعتها، فظهرت أعداد من الأقلام الجزائريّة الإبداعيّة، التي اتخذت من موضوع الأزمة محورا لها" شهدت الساحة الأدبية منذ بداية الأزمة عدداً معتبراً من النصوص الإبداعية التي كانت موضوعها الأزمة؛ لكن الرواية كان لها الحظ الوافر، نظراً لطبيعتها التي مكنتها من احتواء تلك التجربة الإنسانية، إضافة إلى امتلاكها مقومات البعد الوظيفي المأساويّ، والقدّرة على تجسيدها فنياً، زيادة على تميزها بتوفير مجالات أوسع للبحث عن الذات، وقدّرتها العجيبة على احتواء هموم الإنسان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً"[2]، فالأحداث المختلفة التي عاشتها الجزائر دفعت بالعديد من الكتّاب الروائيين إلى الخوض في غمار هذه التجّربة، ناقلة كل معاني الألم والعنف، فباتت هذه الأسماء تحاول تشّخيص هذا الوضع السوداويّ، ونقل حيثياتها وتفاصيلها بكل دقَّة وشفافية في قالب فنيّ جماليّ. وكان الهدف من هذه الدراسة تقصي تجليات الأزمة في الرواية، متبعيًّن في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، وانطلاقاً من هذه الرؤية نطرح جملة من التساؤلات نذكر منها:

- هل استطاعت رواية الأزمة أن تصور الواقع الجزائري وتواكب المأساة الوطنية؟.
- كيف جاءت الرواية الجزائرية المعاصرة بشقيّها؟ وفي أي خانة يمكن إدراج الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية؟ هل يمكن اعتباره أدبًا جزائريًا خالصًا أم أنه أدب فرنسي؟.
- كيف تجلت الأزمة في الرواية؟ وكيف جاءت لغة رواية الأزمة؟ وهل تختلف لغة هذه الرواية عن لغة الروايات الأخرى (رواية اجتماعية، تاريخية، البوليسية، الفانتازيا...)؟.

المبحث الأول: رواية الأزمة وإشكالية المصطلح.

تُعد الرواية من الفنون الأدبية الجديدة في الثقافة العربية، حيث يجد فيها القارئ الأحداث الشيقة والمغامرات الممتعة، وهي الجنس الأدبي الذي احتل مكانة بارزة لدى النقاد والدارسين، لما تكتسبه من خصائص فنية وجمالية تبرز العمل الأدبي في إنتاجات واسعة، ولقد وجد الباحثون ضالتهم في هذا النوع الفني، والساحة الأدبية الجزائرية هي الأخرى اهتمت بهذا اللون الحداثي، ولقيت ترحيباً واسعاً من قبل الأدباء سواء الذين كتبوا باللغة العربية أم الذين كتبوا باللغة الفرنسية، ويعود هذا الاهتمام إلى الأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية التي تميزت بها الجزائر في تلك الفترات الحرجة، والتي عرفت العديد من الحروب والأزمات، هذه الظروف كانت دافعاً قوياً لبروز رواية الأزمة (أدب الأزمة)، هذه الأخيرة ولدت من رحم تلك الظروف، وأيقظت في نفوس الروائيين الجزائريين الاحساس بالوطنية والشعور بالانتماء الوطني، من هذا المنطلق نحاول التّطرق إلى مفهوم الرواية والأزمة بصورة خاطفة والتي تمهد لنا الطريق للخوض في الدراسات الأخرى.

المطلب الأول: محددات أولية في مفهوم الرواية والأزمة.

يبدوا أنه من الصعب تحديد مفهوم الرواية منذ نشأتها، حتى يومنا هذا، وذلك نظرًا لكونها من أكثر الأنواع الأدبية رواجًا وتأثيرًا في المتلقي، حيث استطاعت أن تستحوذ اهتمام الدارسون، إذ ذهب لتعريفها العديد منهم كل حسب رؤيته إلى هذا الفن، الأمر كذلك ينطبق على الأزمة التي اختلف الباحثون في وضع تعريف لها، وهذا لأنها ترتبط بحقول معرفية أخرى(علم اجتماع، علوم سياسية، علوم اقتصادية...)، والذي يختلف معناها من حقل إلى أخر، إذ أنها في مجال الأدب تختلف مسمياتها كل حسب وجهة نظر دارسيها.

أولا: مفهوم الرواية.

1- المفهوم اللغوي:

وردت عدة مفاهيم لغوية نذكر منها ما يلي:

جاء في معجم "لسان العرب" لابن منظور في باب "روى" بكسر ريًا ، ورواءً، وريان عكس عطشان، ويقال روى النبتة وتروى: أي تنعم وماءُ رويُ، وروي ورواءُ أي عذب وروى الحديث والشعر يرويه، وترواه، إذا كثرت روايته، ويقال روى فلان شعرًا إذ رواه له حتى حفظه للرواية عنه، وريث الحديث فأنا راوٍ"[3]

كما وردت لفظة "الرواية" في معجم " القاموس المحيط" للفيروز أبادي" في مادة "روى": «رَوَى مِنَ الماءِ واللبنِ كرضى، رَيًّا ورِيًّا، وَرَوَى، وَتَرَوَّى، وارْتَوَى بمعنى، والشَجَرُ: تَنَعَّمَ كَتَرَوَّى والاسم الري بالكسر وأَرْوَاني وهو ريان، وهي ريا –ج– رِوَاءُ، وَماءٌ رِوِيٌّ والرواية المراد فيها الماء والبَعِيْرُ وَالْبَغْلُ والحِمَارُ يُستقى عليه، روى الحديث: يروي رواية وتَرْوَّاه بمعنى، وهو رواية للمبالغة ورويته الشِعْرَ، حملته على ورِوَايَتِه كَأَرْوَيْتُهُ وفي الأمر: نَظَرْتُ وفَكَّرتُ والاسم الرَّوِيَةُ»[4]، إي أن لفظة الرواية مشتقة من الجدر الثلاثي والذي حملت معاني عديدة ولعل أبرزها الحكي، القص...

2- المفهوم الاصطلاحي:

الرواية في أبسط تعريفاتها: "كتابة نثرية تصور الحياة أو هي ذلك الشكل الأدبي الذي يقوم مقام المرآة للمجتمع، مادتها إنسان في المجتمع وأحداثها نتيجة لصراع الفرد –مدفوعًا برغباته ومثله– ضد الآخرين، وربما ضد مثلهم أيضًا، وينتج عن صراع الإنسان هذا ..."[5] ، وهناك من يعرفها بأنها: "جنس أدبي يشترك مع الأسطورة والحكاية ... في سرد أحداث معينة تمثل الواقع وتعكس مواقف إنسانية، وتصور ما بالعالم من لغة شاعرية، وتتخذ من اللغة النثرية تعبيرًا لتصوير الشخصيات، والزمان والمكان والحدث يكشف عن رؤية للعالم"[6]. كما يمكن عدّها "سرد قصصي نثري يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة الأحداث والأفعال والمشاهد، والرواية شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، نشأ مع البواكير الأولى لظهور الطبقة البرجوازية، وما صحبها من تحرر الفرد من رقبة التبعيات الشخصية"[7].

من التعريفات السابقة يتبين لنا أن الرواية تتميز عن غيرها من الفنون الأدبية بالتشعب، وهذا ما ذهب إليه عبد المالك مرتاض، حيث أكد بأن الرواية لا تكتفي بتعريف واحد، ويصعب الاجماع على تعريف واحد شافي لها يقول: " تتخذ لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل، مما يعسر تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا..."[8] ، عمومًا يمكننا القول إن الرواية فن أدبي سردي نثري ارتبطت بالحياة أو المجتمع، فهي تعبر عن الصراع الإنساني وعلاقاته مع الآخرين؛ أي أنها تجعل من الإنسان المحور الذي تجري حوله مختلف الأحداث والوقائع، وبالتالي فالرواية تتناول مجموعة من المواقف والأحداث التي تنمو وتتطور، والتي تقوم بها الشخصيات في مكان وزمان معين.

ثانيا: في حد الأزمة.

1- المفهوم اللغوي:

تشتقّ لفظة الأزمة من الفعل" أزم"، وقد استقر مدلوله اللغوي في المعاجم العربية، وبالخصوص في معجم لسان العرب على النحو التالي: الأَزْمُ: شدَّةُ العَضّ بِالفَمِ كُلّهِ، وقيل بالأنْيَابُ: هي الأَوَازِمُ، وقيل هو أن يعضّ ثم يكرّر عليه ولا يرسله، وقيل هو ان يقبض عليه بفيه، أَزَمَهُ وأَزَمَ عليه أَزْمًا وأُزُومًا، فهو أَزْمُ وأَزُومُ، وأَزَمَتْ بيد الرّجل أَزَمَهَا أَزْمًا، وهي أشدّ العضّ".[9]

وأفاد صاحب "قاموس المحيط" فيما جاء في أصل الكلمة بقوله: وسنة أزمة بالفتح وكفرحة وملولة شديدة، ومآزم الأرض والفرج والعيش: مضايقها الواحد: كمنزل، والمأْزِمُ، ويقال: المأْزَمَانِ: مضيق بين جمع وعرفة، وآخر بين مكة ومِنًى، والأزمة: الأكلة الواحدة، والشّدّة" [10]، من خلال التعريفين اللغويين نستنتج أن الأزمة تعني الشّدة والضيق والقوة، كما تدل على فترة أو فترات تكون فيها الأوضاع غير مستقرة.

2- المفهوم الاصطلاحي:

الأزمة في أوضح تعريفاتها هي:" موقف طارئ يحدث ارتباكا في تسلسل الأحداث اليومية للمنظمة، ويؤدّي إلى سلسلة من التفاعلات، ينجم عنها تهديدات ومخاطر مادية ومعنوية للمصالح الأساسية للمنظمة، ممّا يستلزم اتّخاذ قرارات سريعة في وقت محدّد، وفي ظروف يسودها التوتر نتيجة نقص المعلومات، وحالة عدم التيقّن التي تحيط بأحداث الأزمة"[11]، أي أن الأزمة عبارة عن مجموعة من الأحداث الغير متوقعة، تكون مستعجلة دون سابق إنذار، تتطلب السرعة واليقظة في اتخاذ القرارات والتصدي لمخاطرها.

وتعني كذلك" تهديداً خطراً متوقّعاً أو غير متوقّع الأهداف قيم معتقدات، وممتلكات الأفراد ومنظمات الدول التي تحدّ من عملية اتّخاذ القرار، فهي بهذا المعنى لحظة حرجة وحاسمة تتعلّق بمصير الكيان الإداري، الذي أصيب بها، مشكّلة بذلك صعوبة حادّة أمام متّخذ القرار فتجعله في حيرة بالغة، أيّ قرار يتّخذ في ظلّ دائرة خبيثة من عدم التأكّد وقصور المعرفة، قلّة البيانات والمعلومات، اختلاط الأسباب بالنتائج وتداعي كل منهما بشكل متلاحق، ليزيد من درجة المجهول عن تطورات الأزمة، في ظلّ مجهول متصاعد عن احتمالات ما، قد يحدث مستقبلا من الأزمة وفي الأزمة ذاتها"[12]، فهي بهذا المعنى تعبر عن حالة اللاّستقرار والفوضى، وبهذا تكون الأزمة على مختلف الأصعدة (سياسية. اقتصادية، اجتماعية...).

3- إشكالية مصطلح الأزمة:

مرت الجزائر في فترة التسعينات بمجموعة من الظروف السياسية ، الاقتصادية والتاريخية ، انبثق عنها ما يعرف بالأزمة الجزائرية، وقد أطلقت على هذه الفترة من تاريخ الجزائر مسميات عديدة منها: العشرية السوداء، المحنة، الأدب الاستعجالي، سنين الجمر، عشرية الدم، فترة الفتنة...، " فالأزمة الجزائرية شغلت الكثيرين: المثقفين والمبدعين، كما شغلت العام قبل الخاص، بعدما تسللت إلى يوميات الإنسان الجزائري، وكان ذلك كافيًا، لتتخذ مادة دسمة استهلكت في العديد من الكتابات".[13]، فالروائي الجزائري كان سباقاً للتأريخ لهذه الأزمة، حيث صور هموم وطنه ومعاناة شعبه، وقساوة المحتل عليهم.

إن الوضع المأساوي الذي عاشه الإنسان الجزائري داخل مجتمعه وزلزل وطنه، جعل الكتاب يجسدون الواقع ويحاولون رسم ونقل أحداثه، فنجد كتاباً نقلوا أحداث الواقع بكل تفاصيله، إذ انشغلوا بنقل جرائم الإرهاب وسوداوية الواقع مغفلين بذلك الجانب الفني" إذ أرخ لهذه المأساة بأدبه، بعيدا عن السياسي، وراح يصور هموم الإنسان داخل مجتمع، أصبح همه الأوحد كيف يبقى حيا؛ يلتقط عناصر قصة من نصوص واقعية، هي دقائق وتفاصيل المواطن البسيط، ويقدم نماذج لمعاشاته تحت سطوة لغة لم يعهدها، هي لغة الموت المفاجئ أو المقصود".[14]، وعليه فرواية الأزمة تحيل إلى الأوضاع السوداوية التي مرت بها الجزائر، وبهذا أصبحت محنة الجزائر– موضوع الثورة– منهلا خصبا للعديد من الكتاب لإنتاج طاقات كتابية هائلة، وتجسد ذلك في الكثير من الأعمال الأدبية، التي صورت هموم الشعب الجزائري في قالب فني جميل، فهذا الاختلاف في تسمية هذا الأدب يعود إلى اختلاف منطلقات وإيديولوجيات الروائيين، وكذا تعدد مشاربهم وثقافتهم، لكن رغم الاختلاف إلا أن الشيء الملفت للانتباه أن موضوعها يدور في قالب واحد (تصوير الواقع المأساوي للمجتمع الجزائري).

المطلب الثاني: الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية والفرنسية وإشكالية الهوية والانتماء.

عرفت الرواية الجزائرية منذ نشأتها تطورات كبيرة، وهذا راجع كما ذكرنا سابقاً إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، فلا يمكننا الحديث عن نشأة الرواية الجزائرية خارج هذه الظروف، إذ نجد معظم الأدباء الجزائريين قد جعلوا من هذا الفن وسيلة أو غاية للتعبير عن الواقع المرير الذي عاشته الجزائر في تلك الحقبة الاستعمارية، وقد أدت هذه الظروف إلى بروز نوعين من الإبداع الروائي الجزائري، النوع الأول وهو الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، والنوع الثاني وهو الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية.

أولا: الرواية الجزائرية المعاصرة.

1- الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية:

كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية متأخرة الظهور في الساحة الأدبية، نتيجة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وكذا الظروف الصعبة التي مر بها الشعب عامة والأدباء خاصة، حيث سعى الاستعمار إلى تطبيق سياسيته المتمثلة في نشر ثقافته (سياسة التجهيل)، "فأول محاولة في هذا المجال هي لمحمد إبراهيم المدعو الأمير مصطفى والمسماة "حكاية العشاق في الحب والاشتياق""[15].

إضافة إلى هذا نجد أن الباحثين والنقاد اتفقوا على أن رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو كانت أول الأعمال الروائية الجزائرية، الذي تناولت قضية المرأة العربية عامةً والمرأة الجزائرية خاصةً، وتلي هذه الرواية رواية "الطالب المنكوب" لعبد المجيد الشافعي والتي صدرت سنة 1951م، وتدور أحداث هذه الرواية في تونس، ويمكن اعتبارها: "بمثابة خطوة أخرى إلى الوراء بالنسبة إلى الدرب المتطور -نسبيًا- الذي رسمته وأسسته غادة أم القرى ل رضا حوحو"[16] ، أما الرواية الثانية التي ظهرت في هذه الفترة فهي رواية "الحريق" لنور الدين بوجدرة التي صدرت سنة 1957م، وتدور أحداث هذه الرواية حول شاب اسمه علاوة الذي قرر الالتحاق بالثورة والصعود إلى الجبل بعد قتل الفرنسيين لوالديه، لكي ينتقم لهم تاركًا ابنة عمته وخطيبته زهور ...[17]، تصور لنا رواية الحريق جانباً آخر من معاناة الشعب الجزائري جراء الاحتلال الغاشم، وهي رواية أكثر تطورًا وتماسكًا من رواية غادة أم القرى والطالب المنكوب.

أما في فترة الستينيات (عقب الاستقلال)، فلا نكاد نعثر على عمل روائي مكتوب باللغة العربية غير عمل واحد "صوت الغرام" "لمحمد منيع"[18]، وهذا راجع لسوء الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وآنذاك، غير أن النشأة الجادة لرواية فنية ناضجة ارتبطت برواية "ريح الجنوب"، وقد كتبها "عبد الحميد بن هدوقة" في فترة كان الحديث السياسي جار بشكل جدي على الثورة الزراعية (...) تزكية للخطاب السياسي الذي كان يلوح بآمال واسعة للخروج بالريف من عزلته[19]، ولهذا يمكننا القول إن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية قد اتخذت من "الثورة" موضوعًا لها، حيث صورت ظروف ومعاناة المجتمع الجزائري خلال فترة الاستعمار الفرنسي.

2- الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

ارتبط ظهور الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هو الآخر بتواجد الاستعمار، الذي كان له أثر بالغ خاصة على المجتمع الجزائري عامة والرواية على وجه الخصوص، فقد نشأت الرواية الجزائرية

إثر مجموعة من الظروف القاسية كالحرمان والظلم والفقر والبؤس، وبرزت في العديد من الأعمال كان أولها"انتقام الشيخ La Vengeance du Cheik" وقد نشرت هذه القصة في المجلة الجزائرية التونسية سنة 1891م، أما أول سلسلة من القصص والتي يمكن أن تشكل رواية قصيرة، ولكنها لم تجمع في كتاب فكانت سنة 1912م، في صحيفة الحق من توقيع "أحمد بوري"، تحت عنوان "مسلمون ومسحيون"[20]

أما أول رواية كتبت باللغة الفرنسية كانت سنة 1920م، "للقايد بن شيخ"، تحت عنوان "أحمد بن مصطفى قومي"، ثم تبعت بروايات أخرى، ففي سنة 1925م، أصدر عبد القادر حاج حمو رواية تحت عنوان "زهرة زوجة المنجمي"، وقد عدّت هذه الرواية لفترة طويلة هي الأولى في تاريخ الأدب الجزائري (...)[21]. وعليه فقد أخذت الرواية مكانة واسعة في الدراسات النقدية الجزائرية، وهذا ما جعل مختلف الروائيين الجزائريين يتبنون هذا الجنس الأدبي، الذين حاولوا من خلاله إسماع صوت الشعب الجزائري، وتجسد ذلك في العديد من أعمالهم الأدبية وفي فترات زمنية مختلفة.

ظهر هذا الأدب بعد الحرب العالمية الثانية وأبرز كتابه "محمد ذيب" و" مولود معمري" و" مولود فرعون" و" كاتب ياسين" و" مالك حداد" و" آسيا جبار". وقد تأثر أغلب هؤلاء الكتاب بأحداث الاستعمار منهم كاتب ياسين الذي عاصر معركة سطيف (...) وقصته "نجمة" تعد من أبرز نماذج الأدب الجزائري الفرنسي اللغة، وحوادث هذه القصة تجري بجبل الناضور بعمالة بقسنطينة (..) وهناك تبدأ المأساة تصور كيف أصبح الكاتب صعلوكًا (...) بعيد عن أهله ولغة آبائه[22]، كما نجد "مولود معمري" في روايته "الهضبة المنسية La colline Oubliee " والتي تعد أول رواية أصدرها مولود معمري سنة 1952م، ولقد عدّها "جون ديجو" من أفضل أعماله، فهي تنقل حالة القنوط التي يشعر بها الشباب المحروم من العمل، وضغط التقاليد عليهم، فكل واحد حاول البحث عن سبيل للخلاص، وفي النهاية يغادر البطل الربوة إلى مكان آخر[23].

وكتبت كذلك آسيا جبار "رواية العطش LA Soif "في بداية ممارستها للكتابة الروائية، وهي نص نسائي جاء بضمير المتكلم، تتحدث الرواية عن التنافس العاطفي والرغبة الشديدة في التحرر عند الشباب الجزائري، هذه الرغبة التي أفضت إلى الندم والإجهاض[24]، لم تقتصر الكتابة الروائية عند الكتاب الرجال فقط، بل انتقلت إلى الجنس الثاني النسائي الذي حمل هو الأخر لواء الدفاع عن قضية الوطن.

المحصلة إن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسة نشأت نتيجة عوامل مختلفة، منها الاجتماعية والتاريخية والسياسية، هذه الظروف حتمت على الأدباء الكتاب الجزائريين إلى الكتابة باللغة الفرنسية، ولكنهم بالرغم من أنهم لم يكتبوا بلغتهم الأم، إلا أنهم صور كفاح الشعب الجزائري ونضاله ضد الاحتلال الفرنسي، وأخرجوه في أحسن صورة وبأصدق المشاعر والأحاسيس والعواطف.

ثانيا: الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية وإشكالية الهوية والانتماء:

تعتبر إشكالية هوية وانتماء الرواية الجزائرية التي تكتب باللغة الفرنسية، من أكثر الإشكاليات تداولاً من طرف النقاد الباحثين، حيث اختلفت المواقف والآراء في ما بينهم، منهم من يرى أنه أدب فرنسي لأنه كتب باللغة الفرنسية، وبين من يراه أدب جزائري خالص لكونه يعبر عن الروح الجزائرية، وبين هذين الموقفين نشأ موقف آخر كان وسطي بينهما، ومن بين الكتاب الجزائريين الفرانكفونيين الذين يعدانه أدباً فرنسياً نجد "مالك حداد" الذي " يرفض تسميته "بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية"، أو "الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي"، وقد عبر عن هذا الرفض في حوار أجرته معه جريدة "لا كسيون" (...)، وأعطى له اسمًا آخر قلبه رأسًا على عقب ليصبح " الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري" وهو اسم لم يستعمل قبله أحد"[25]، فهو بهذا يعد هذا الأدب الجزائري أدبًا فرنسيًا خالصاً كونه كتب باللغة الفرنسية، ولكنه في الوقت نفسه يؤكد على الروح الجزائرية التي كتب بها؛ أي أنه يعبر عن الواقع الجزائري.

ويبرر موقفه هذا بقوله(مالك حداد): "نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية" ويقول مراد بربون "إن اللغة الفرنسية ليست ملكاً خاصًا للفرنسيين وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إن أية لغة إنما تكون ملكًا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي، ويعبر عن حقيقة ذاته القومية"[26]، نفهم من خلال هذين القولين أن كل من مالك حداد ومراد بربون، يؤكدان على أن اللغة الفرنسية هي لغة الجميع وليست منصبة على الفرنسيين وحدهم، وأن من يحسن استعمال اللغة ويوظفها هو من يستطيع امتلاكها لتعبير عن قضية وطنه، فبالرغم من كتابتهم باللغة الفرنسية إلا أنهما لم يتجردا عن انتمائهم ولم ينكرا أصلهم.

في حين يذهب"مولود معمري" إلى القول بإنه: "يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيًا إذا كتبت باللغة الفرنسية، فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص، فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره هو (...) إنني أقول: إن هذه فرصة، بل إنها ثروة للثقافة الجزائرية"[27]، فاللغة الفرنسية من وجهة نظر "معمري" لا تقف عائقاً في كتابته، وإنما تكون بمثابة الوسيلة التي يريد من خلالها التعبير عن أحاسيسه وعواطفه، ويعتبرها مكسباً مهمًا للثقافة الجزائرية، ويكاد الأديب "كاتب ياسين" يتفق و"مولود معمري" "الذي ينظر إلى اللغة الفرنسية على أنها أولًا وقبل كل شيء وسيلة للتعبير، وثانيًا على أنها هي أيضًا "لغة جزائرية"، أما الثقافة الفرنسية فلا يمكن لها إلا أنه تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة"[28]

أما النقاد والدارسون، والمهتمون بوجه عام بهذا الأدب المكتوب باللغة الفرنسية في الجزائر، فإن نظرتهم إلى هوية هذا الأدب جد متباينة، فهناك من يعده "جزائريًا" وكفى مع الحرص على تمييزه دائما

بعبارة "المكتوب بالفرنسية"، أو "ذو التعبير الفرنسي"[29]، وهناك من عده " دخيلاً وقد نبت في ظروف تاريخية غير شرعية، ويذهب فريق آخر إلى أن هذا الأدب لا بد من أن ينقطع أصله وإلى أن مصيره الزوال بزوال الأسباب التي أنتجته، فما هو إلا صورة لمرحلة من مراحل التاريخ ذات محن وذكريات أليمة"[30]، من خلال هذه الآراء الثلاثة نلحظ أن هناك اختلاف في تصنيف الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية بين من يؤكد جزائريته، وبين من يعتبره أدب دخيل، وأنه قد وجد في فترة حرجة عرفتها الجزائر ألا وهي الاستعمار، بحيث كان معظم الجزائريون يتقنون اللغة الفرنسية، هذه الظروف هي التي حتمت عليهم الكتابة بالفرنسية.

أما الدارسون الجزائريون الذين تعرضوا لمناقشة هذا الموضوع، " فينقسمون إلى اتجاهين رئيسيين اتجاه ينكر الهوية العربية لهذا الأدب، بحكم اللغة التي كتب بها، ويرى أنه ليس ممكنًا اعتبار رواياتهم (أي الكتاب) باللغة الفرنسية جزءًا من التراث الثقافي العربي[31]، وهناك من وضع الكتاب الجزائريين في صف واحد مع الكتاب الفرنسيين الذين ولدوا هم أيضًا على أرض الجزائر وعاشوا فيها، ويستند أصحابه في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها، التي تلحق الأدب مهما كانت جنسية كاتبه بالأمة التي تتكلم باللغة التي كتب بها ذلك الأدب، وتعده من أدبها القومي"[32] والواضح من خلال هذا أن هناك تبيان بين النقاد والباحثين في خصوص هذه المسألة، بين من يلحقه بالأدب الفرنسي، وبين ما يعتبره عربيًا (جزائريًا)، وبين من يضعه في مكان أو صف واحد مع الأدب الفرنسي، واستندوا في حكمهم هذا إلى مبادئ مدرسة الأدب المقارن الفرنسية.

وهناك اتجاه آخر يمثله أساسًا الدارسون والمترجمون العرب، الذين درسوا هذا الأدب أو نقلوا بعض النصوص منه إلى اللغة العربية، وفي هذا الشأن يقول بعضهم: "هذا الأدب المغربي ليس من الفرنسي بشيء، وإنما هو" أدب جزائري بكل معنى الكلمة"، و"أدب وطني ملتزم وقطعة من التراث المعرفي العربي"، وحينما ينقل إلى العربية، إنما يعاد بذلك إلى اللغة الأم[33]، الملاحظ من هذا أن النقاد والمترجمون العرب هم كذلك أكدوا على جزائرية هذا الأدب، واعتبروه أدبًا مغاربيًا خالصًا، وأنه لا صلة له بالأدب الفرنسي، لكونه يعبر عن قضية واحدة وهي "الجزائر".

وهناك تيار وسطي يتحدث عن ما يسميه "الروح الجزائرية" أو "العربية" التي كتب بها وهذا ما صرح به إبراهيم الكيلاني في قوله:" فهذا الأدب وإن كتب باللغة الفرنسية، فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوي عن أعمق الأسس الروحية، والاجتماعية التي يقوم عليها ماضي الشعب الجزائري وحاضره"[34]، ويقترب هذا الرأي الوسطي كثيرًا من رأي بعض النقاد والمؤرخين الجزائريين، مثل الأستاذ محمد الميلي الذي تحدث عن هذه الروح لدى بعض الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية "هذه الروح التي

استمدت أصلتها وعمقها في رأيه من تأثير البيئة التقليدية والأم الجزائرية (...)، وتلك الروحية هي التي جعلتهم ينجحون في التخلص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية"[35]، يؤكد كل من "إبراهيم الكيلاني" و "محمد الميلي" أن الأدب الجزائري وإن كتب باللغة الفرنسية، فهو يعبر عن الروح التي عاشها الشعب الجزائري، فهم بذلك لا يتجاهلون التاريخ، ويؤكدون على أن هذا الأدب قد ولد على أرض جزائرية، وبأقلام جزائرية في ظروف استعمارية.

وعمومًا يمكن القول إن الأدب الجزائري المكتوبة باللغة الفرنسية، والأدب الجزائري المكتوبة باللغة العربية وجهان لعملة واحدة؛ ذلك لكون هذا الأدب قد نشأ في الجزائر، وعبر عنه كتاب جزائريون تحت ظروف قاسية حتمت عليهم الاستعانة باللغة الفرنسية في كتاباتهم، ، فهؤلاء الباحثون والكتاب الجزائريون بالرغم من اختلافهم في اللغة التي عبروا بها، إلا أن هدفهم كان واحداً وهو التعريف بالقضية الجزائرية وإطلاع الرأي العام والعالمي عليها، وأن الشعب الجزائري كغيره من الشعوب له الحق في الاستقلال والحرية.

المبحث الثاني: تمظهرات الأزمة في رواية "المراسم والجنائز" لـ بشير مفتي.

تعد فترة التسعينات من بين الفترات الحرجة التي تجلى فيها أدب المحنة، والذي كان له حضوراً قوياً في الكتابات الجزائرية (شعرا كان أم نثرا)، حيث التف الكتاب إلى مشاكل مجتمعاتهم واتخذوا من القلم لسان يعبر عن واقعهم وأوضاعهم، وبالتالي فرواية الأزمة كانت نتاج لمجموع من الظروف، وهذا ما أكده عمار بن زايد في كتابه" النقد الأدبي الجزائري الحديث" بقوله:" والواقع أن الأزمة ليست ناجمة عن وضع بعينه أو نتيجة لعامل بذاته بقدر ما هي حصيلة لأوضاع وعوامل شتى، أدت إلى خلق إحساس بوجود أزمة فعلية".[36]، في هذه الدراسة سنحاول تقديم تمثلات الأزمة في الرواية، ولكن قبل ذلك سنقدم قراءة خاطفة قصيرة للعنوان، باعتباره المفتاح الذي بواسطته يمكننا من فهم النص والولوج إلى أعماقه.

المطلب الأول: قراءة في العتبات النصية.

تعد (العتبات النصية) نمط من أنماط المتعاليات النصية والشعرية عامة ، وهي تعمل على تقديم النص وتلقيه، بحيث تجعل القارئ يمسك بالخطوط الأساسية للنص وفهم خصوصيته، وتحديد جنسه ومقاصده الدلالية.

وقد فتح جيرار جنيت Gerrard Genett أفاق واسعة في بحثه عن العتبات التي خصص لها كتابا كاملا، سماه بنفس الاسم "عتبات " Seuils (1987) م، التي يعرفها على أنها" كل ما يجعل من النص كتاباً، يقترح نفسه على قراءه، أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار ذي حدود متماسكة، نقصد به هنا العتبة أو البهو الذي يسمح لكل منَّا دخوله أو الرجوع منه"[37]، وسماها أيضا

النص المحيط(Peritexte) ، أي هي " كل هذه المنطقة (zone) والفضائية والمادية من النص المحيط، التي تكون تحت المسؤولية المباشرة والأساسية للناشر أو أكثر دقة للنشر[38]، فالنص في الواقع لا يمكننا معرفته وتسميته إلا بعتباته أو بمناصه، وقل ما نجد نصاً عارياً من العتبات، فالكشف عن الدلالات والفضاءات الرمزية المتفاعلة في النص، تنطلق من عتبات التي تعد بوابة أي عمل أدبي .

أولا: رمزية العنوان:

العنوان عتبة من العتبات النصية؛ فهو في نظر المنهج السيميائي" يعد نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة"[39]، ويعتبره إيكو" بأن مفتاح التأويل يلتصق بالعنوان أقول: العنوان لا القراءة، إذ العنوان يثير في المتلقي هاجس التوغل في كنه العمل...يثير فضول المتلقي فيأخذ في التعبير عن المحتوى بعيدا عن القراءة..."[40] ؛ فهو بذلك يعد بمثابة المفتاح الذي بواسطته، يمكننا الولوج إلى أعماق النص ومحاولة تأويله، والكاتب هو الذي يختار عنوان روايته بعناية فائقة، لإخراجها بأكثر من دلالة.

وبعودتنا إلى عنوان رواية" المراسيم والجنائز" يتبادر إلى أذهاننا جملة من التساؤلات منها: لماذا اختار الروائي هذا العنوان دون غيره؟ إلى أي مدى يعكس عنوان القصيدة محتواها ؟، فهذه الأسئلة وغيرها تثير ذهن المتلقي، فيضطر إلى قراءة النص بحثا عن إجابات تشبع فضوله، ويبدوا لنا العنوان من الوهلة الأولى غامضاً يشير إلى الحزن والخوف والسواد والكآبة والمأساة، ولهذا جاء العنوان مركب من ثلاث كلمات، اسمان يتوسّطهما حرف عطف" الواو" فمفردة المراسيم والجنائز تشير إلى الواقع المرير الذي عاشه الشعب الجزائري، من تهميش وعنف وألم وأزمة في فترة حرجة ومقلقة.

وعليه يمكننا القول إن للعنون دور كبير ومكانة مميزة في العمل الأدبي، فعنوان الرواية كان مرآة عاكسة لمضمونها، فهو يوحي إلى معاناة مدمرة، تحمل ذكرى مؤلمة تقوم على أوجاع لا تنتهي تبدد الأمل والسعادة، وبذلك فالروائي جسد لنا همومه في صور فنية وإبداعية جميلة، أبانت عن براعته في التصوير والتشخيص.

ثانيا: تجليات الأزمة في الرواية:

جمعت رواية" المراسيم والجنائز" عبر أحداثها الأزمة التي شهدها المجتمع الجزائري خلال العشرية السوداء، فعند قراءتنا لها رصدنا بعض المشاهد الدموية المستمدة من الواقع المرير، والتي صورت لنا الرواية العديد من أنواع العنف والموت والقتل الذي عانى منه المجتمع الجزائري، وعليه فقد جاءت الرواية حافلة بالكثير من الأحداث(الأزمة)، والتي تنوعت الأزمة في المتن الروائي بين الأزمة السياسية، الأزمة الاجتماعية، الأزمة النفسية، والروائي" بشير مفتي" اتخذ من مدينة الجزائر مسرحاً لتلك الأحداث

السوداوية، فنجد صور الصراع السياسي بين قوى المعارضة والنظام، وعلى إثر هذا الصراع شنت هذه القوى حصار على المدنيين، وتمثل ذلك في قول الكاتب:" ...مازالت حركة الإضراب متواصلة، ورجال المعارضة أتباع سعيد الهاشمي يحتلون الساحات الكبرى للمدينة، مازال الجو على نفس الحال، منذ شهرين تقريبا، والحكومة غير قادرة على فعل شيء ما تزال متخبطة في إصدار قرار يحسم ذلك ".[41]، كما صور لنا الروائي صمود وتصدي أفراد الوطن لهذه السياسة الايديولوجية، التي تطالب بالتعددية الحزبية والهوس بالسلطة " خذو حذركم في الشوارع.. خذوا حذركم في الممرات والدهاليز..ومع ذلك كان الجميع يخرج..كانوا يذهبون إلى المعامل رغم حركة الإضراب الواسعة والتهديدات اللفظية العنيفة، حشود قوات الأمن في وجه قوات المعارضة..".[42]، رغم الخوف والرعب الذي بثه أصحاب المعارضة، إلا أن ذلك لم يمنع النظاميين من مزاولة عملهم وحياتهم اليومية بصورة عادية.

تحدث الروائي عن المعاناة الاجتماعية والتي راح يطرح فيها عدة تساؤلات:" ...بقيت أنا واقفا أتأمل التاريخ بعناية وأتصور هذا الفراغ المحيط بي، هذا الجحيم الأسود هذه الحقائق التي تتكشف أمامي. هذا الشعب المغبون، وهذا البلد المتصدع...إي لعنة نزلت عليه؟ كيف حدث الذي حدث؟.. ولماذا حدثت الأشياء على هذه الصورة ولم تحدث بصورة أخرى"[43]. هذه التساؤلات التي أثارها الكاتب، تمحورت كلها حول السبب الذي أدى بالوطن إلى هذه الحالة المزرية والتي أدخلته في نفق مظلم لا خروج منه، وهذا ما أكدته فيروز بدورها من خلال تساؤلاتها :" أحاول البحث عن جذور الأزمة..إلى أين تعود..محاولات في قراءة الماضي البعيد جدا اكتشاف مذهل.. العنف.. العنف.. العنف.. لكن ما ذنبنا نحن، أبناء الاستقلال لنعيش نفس الوضعية القديمة، المتجددة، نحن درسنا في الجامعات لكي ننقذ البلاد..لا لندمرها..أطفال مشاغبون طردوا من المدرسة.. هم الذين صنعوا أكتوبر.. اليوم تجار الدم. يصنعون ماذا؟ خراب الأرض !.موت الإنسان !.ضياع القيمة .! "[44]

يصور لنا "بشير مفتي" صورة المدينة والتي كانت بركان للانفجار:"...كما لو أن 5 أكتوبر 1988م ما يزال على حاله..الصورة المخربة والمشوهة للمدينة التي طالما نعتت بالبيضاء. هي برمادها. جيوشها. قاذوراتها. أوساخها. انفجاراتها، تقهقرها سرطانها عنقها وأحلامها "[45] بشاعة هذا الوصف دليل على خطورة الأزمة وقوتها، إذ أنها ألحقت بها خراب ودمار قضى عليها بالكامل(المدينة)، ونقلت لنا الرواية كذلك مشاهد الاغتيالات والتهديدات التي استهدفت رجال الإعلام(الصحفيين):"...فماذا سيفعلون لو قدر لهم أن يعرفوا بأن هذا الجار الخجول والمتواضع هو أستاذ جامعي وصحفي بإحدى الجرائد المستقلة، هل كانوا سيقدرونني حقا أم كانوا سيفعلون بي المنكرات...مثلما فعلوا ب"عمر حلزون" الذي وجدت رأسه مقطوعة ومرمية في سلة المهملات وكلاب الليل تتناهش البقية المتبقية منها...منظر فظيع

للغاية"[46]، ويضيف في قوله:" لقد زاروني البارحة وطلبوا مني أن لا أنشر أي مقال ....لقد هددوني بالموت...وقالوا أنني لو تماديت في سلوكي التمردي هذا...ولم أستمع للأوامر فإنهم سيغلقون حتى الجريدة...، لقد قررت الصمت، تصوّري صالح بوعنتر يصمت..."[47]، فالروائي قدم لنا مشهد فظيع للغاية يلخص كل المعاناة التي تتعرض لها الصحافة، وكل شخص يحمل القلم ليعبر عن قضية الوطن يكون مصيره الموت الحتمي الذي لا مفر منه.

وبلغت بشاعة تلك الجرائم أقصى حدودها حيث كانت الأجساد تتآكل يقول السارد(ب):" ...قنبلة تنفجر بالقرب من بيتها..ولعلها ماتت..لم يتركني رجال الشرطة أقترب من الجثة المفحمة..الكثير مات يومها..الكثير مات وأمام الجثث الكثيرة، رأيت جثتها هي، جثتها المفحمة، كانت تظهر كما لو أنها تنبت بالحياة..."[48]، ويقول أيضا:" لم يعرض التلفزيون إلا بعض الأجساد المقطعة وبرك الدم التي لطخت الأرض...صورة الأطفال المذبوحين... مجزرة أخرى تودي بمائة وسبعين جزائريا إلى المقبرة..."[49] فهذا المنظر يفسر لنا بشكل كبير حجم الأزمة التي عاشها الشعب الجزائري، فالعجوز" رحمة" مثال للتهميش والعنف الذي يلحق بخيرة أبناء الوطن المخلصين الذين يدافعون عن أوطانهم، ولكنهم يجدون أنفسهم في نهاية المطاف جثث هامدة لا فائدة منها.

كما تحدث الروائي على العديد من المجازر، وقام بسرد أحداثها ووصف الدمار والخراب:" ...كم كانت الساعة عندما قتلوه..كم كان عدد القتلى؟..كم هو عدد الرصاصات التي اخترقت جسمه النحيل، أي نوع من الرعب الذي اشتعل في صدره.."[50]، وتحدث أيضا عن مجازر أخرى يقول:" ...جاءت المجازر الجماعية. لقد اكتشفت فجأة الخوف والصدمة..العنف والجريمة..القتل والذبح والرؤوس المقطوعة. والأجسام المغتصبة..رجال ونساء وأطفال.. لقد اكتشفت أن كل ما كان يحدث هناك مروع وفاجعة للغاية.. إنَّه قيامة حقيقة..."[51]، وهكذا فالرواي صور لنا العديد من المشاهد الدموية المؤلمة التي تعرض لها الشعب الجزائري خلال تلك العشرية الدموية الحمراء، والتي حملت كل معاني الحزن والأسى والكآبة. والتي أدت إلى ضياع المجتمع ودخوله في دوامة من الألم والمعاناة.

نقلت لنا الرواية مشاهد الرعب الذي كان يعيشه الناس جراء الإرهاب الذي كان يداهمهم في أي لحظة" ...حتى سكان القرى والمداشر.. اعترفوا بأن موتهم صار أكيدا.. لقد تسلحوا هم أيضا.. لكن أعداد القتلة كانت دائما كبيرة.. كانوا يأتون من الجبال..ويتمون جريمتهم ثم يمضون.. إلى أين.لا أحد يعلم.."[52].

وجراء هذه الأعمال الإجرامية هيمنت أجواء الرعب والخوف وتمكنت من النفوس معنوياً، ونلمس هذا المشهد في الرواية، من خلال وصف شعور الأستاذ الجامعي والصحفي الذي كان خائفاً على حياته

من الموت:"... وعندما أعرف بأن الحافلات كلها متوقفة وأن الدبابات قد نزلت إلى الساحات، وتشابكت مع المضربين من أتباع سعيد الهاشمي وأن جو الغبار والرماد والتعفن قد بدأ يتحكم في سماء المدينة، كنت خائفا من الخروج...خائفا من الانزلاق والسقوط بل خائفا من الموت..."[53]، هذا الصراع والتوتر أدخل الصحفي(ب) في كابوس مليء بالرعب والخوف، وجعله يدرك أن مصيره الموت المحتوم، فهذه الأوضاع المضطربة من شأناه أن تؤدي إلى الانهيار النفسي مثلما حدث مع "حميدي ناصر" :" سمعت أن يوميات الحرب قد أدخلته في حالة نفسية يرثى لها. وأنه صار أكثر ابتعادا من ذي قبل عن مخالطة الناس..."[54]، فأزمته النفسية الحادّة أبعدته عن الناس وأخذته إلى عالم العزلة والانطواء على الذات، فمرضه كان نفسياً أكثر منه جسمياً، فقد أصبح لا يفارق الفراش، وظل الصمت والشرود حليفاه في عزلته هذه.

وتجلى أيضا الموت الجماعي في الرواية في قول السارد:"...لقد نهضت باكرا في تلك الصبيحة السبتمبرية الحارة...أنهضني الفزع في البداية. فكل شيء يخيف الآن، وكل واحد يتحدث عن الموت الذي يزحف وينتشر بصورة متسارعة..."[55]، ويقول كذلك:" لا أحاول التفكير أتجمد في مكاني أتحول إلى حلزون عنيد أصمت وأواصل عملية المراوغة لا مجال للهرب...الموت هنا. هناك. الموت هو في كل مكان تنظر إليه أو تهرب منه"[56]. فهو يرى بأنه لا مجال للهروب أو المراوغة لأن الموت في كل مكان، وعليه جاءت هذه المقاطع السردية لترسم لنا لغة عنيفة جسدت لنا صور الموت والقتل، إي أنها لغة لا تحمل في طياتها إلا الحزن والكآبة.

والملاحظ على الرواية أن موضوعها تمحور حول الأوضاع المزرية للشعب الجزائري أثناء العشرية السوداء، وقد امتزجت الرواية بطابع الحب الذي كان عنصراً محرك لأحداث الرواية والتي جسدت لنا الواقع المعاش خلال هذه الفترة، فالحب هنا تجسد بين شخصيات الرواية، كان أبرزها حب السارد، والذي عاش حبين، بين حبه لـ "سارة حميدي" و"فيروز" فتاه بينهما، إلا أنه اكتشف معالم الحب مع سارة حميدي يقول:" قضيت فترة الجامعة كعاشق كبير للكتب والكتابة فلم يكن عندي أي صلة بالآخرين، فقط بعض الأصدقاء الذين أتقاسم معهم نفس الهواجس والانشغالات، لهذا عندما دخلت سارة حميدي حياتي قلبت كل كياني، وعصفت بروحي العديد من الأحاسيس الغامضة والتائهة، حيث شعرت لأول مرة بالحب..."[57]، فالراوي تاه في حبه للفتاتين وحاول الحفاظ عليهما يقول:" لم أكن للحظة واحدة أفكر في خسرانك، كنت أجمل لحظة في العمر، فكيف يمكنني أن أحدثك عن امرأة أخرى تقاسمك أناي.. أقصد نفس الرجل.. "[58]، كانت علاقته بالفتاتين المنعرج الذي غير حياته فلم يكن يريد خسارة إي واحدة منهما. فالحب في هذه الرواية تجسد عند معظم شخصيات الرواية ولم يقتصر على شخصية واحدة فقط، ونخلص

في النهاية إلى أن الرواية قد عالجت وقائع اجتماعية وسياسية عاشتها الجزائر في فترة ما بعد الاستقلال، وكذا الأزمة التي شهدها الشعب الجزائري خلال العشرية السوداء.

المطلب الثاني: لغة الرواية (لغة رواية الأزمة):

تعد اللغة من أهم العناصر التي يقوم عليها العمل الأدبي، فهي بمثابة العمود الفقري التي ينبني عليها الجنس الأدبي، والتي تجعل منه نسيجا متكاملا وتخلق اتساقا وانسجاما بين شخصياتها، وبالتالي فاللغة من وجهة نظر عبد الملك مرتاض:" اللغة انسجام وتناغم ونظام، واللغة الابداعية نسيج بديع يبدع ويسحر، ولعل الأديب الكبير هو الذي يعرف كيف يتلظف على لغته، يجعلها تتوزع على مستويات، ولكن دون أن يشعر قارئه بالاختلال المستوياتي في نسيج لغته"[59]، وعليه فاللغة أداة تستخدم للتعبير عن مكنونات النفس البشرية وما يختلج صدرها من أحاسيس وعواطف وأحداث.

وظف الروائي الجزائري" بشير مفتي" في روايته هذه اللغة العربية الفصيحة مازجا إياها باللغة الشعرية، و التي نقف عندها في بعض المقاطع السردي:" ...إنها تتجمع من الشتات والفوضى من النثار المبعثر في الفراغ كبقايا لتصير لها وجه وملامح...قلبي ينقبض أحيانا وتتزعزع ثقتي بنفسي، وتنهار أشطار مني تسقط في بحيرات من اللعاب والصابون الملوث بالدم....أتحول إلى حلزون عنيد ... "[60]، يحاول الروائي أن يبرز تأثيرات تفكيره المتواصل بالموت، فهو بهذا يعيش في صراع دائم وعقدة نفسية، أثرت عليه بشكل مقلق للغاية جعلته يفقد الثقة في نفسه، ويكابد الألم والمعاناة بقلب جارح ينزف دما.

كما نلحظ أن الروائي اعتمد على لغة المناجاة والتي برزت في حديثه مع نفسه، وشعوره بالخوف والضياع، وهي لغة تتسم بالصدق والاعتراف ، وتساعد على إخراج المكبوتات التي تختلج صدر السارد:" من أين يأتيني هذا الصوت الخارق، هذا النداء الذي أسمعه كلما وجدت نفسي متلبسا بفوضى العالم المنهار أمامي، وضعف الروح أمام يقين الجسد، حيث تملأني بالحيرة وتقذفني إلى قلب المتاهة فلا أعود أسمع غيره، ولا أرى إلا تلك الأشباح والصور..أتراه طيف أسطوري يعود من لا وعي قديم، يبصرني بالمأساة دون أن أدري..لعله أنا فيما أنقسم إلى شخصين واحد يعرف مصيره وآخر يجهله..أم هو نداء الموت الشرس الذي لا يرحم، ذلك النداء المخيف الذي يقصم الذات ويفتتها تفتيتا أليما حتى لا يبقى منها شيء يذكر.. لا أدري.. لا أدري.. "[61]

كما وظف السارد لغة عنيفة من خلال تصويره للحظة الانفجار الذي حول مدينة الجزائر إلى وطن الهلاك والخراب ومقبرة جماعية من الجثث المتفحمة، فالروائي قد صور مأساة وطنية تعبر عن واقع مرير ومتأزم عاشه الشعب الجزائري، ويقول في هذا المقام:" ...قنبلة تنفجر بالقرب من بيتها..ولعلها ماتت..لم يتركني رجال الشرطة أقترب من الجثة المفحمة..الكثير مات يومها..الكثير مات وأمام الجثث

الكثيرة، رأيت جثتها هي، جثتها المفحمة، كانت تظهر كما لو أنها تنبت بالحياة"[62]، ويواصل وصفه " ...لقد اكتشفت فجأة الخوف والصدمة...العنف الجريمة.. القتل الذبح والرؤوس المقطوعة. والأجسام المغتصبة.. رجال ونساء وأطفال..."[63]، ويقول أيضا:" أحاول البحث عن جذور الأزمة..إلى أين تعود..محاولات في قراءة الماضي البعيد جدا اكتشاف مذهل.. العنف.. العنف.. العنف.. لكن ما ذنبنا نحن، أبناء الاستقلال لنعيش نفس الوضعية القديمة، المتجددة. نحن درسنا في الجامعات لكي ننقذ البلاد..لا لندمرها..أطفال مشاغبون طردوا من المدرسة.. هم الذين صنعوا أكتوبر.. اليوم تجار الدم. يصنعون ماذا؟ خراب الأرض !.موت الإنسان !.ضياع القيمة.! [64].

إن المتأمل لهذه المقاطع السردية يلاحظ أن اللغة التي استخدمها الروائي هي لغة تتسم بالعنف، فقد حملها السارد دلالات الألم والبؤس والمعاناة، وتجلى ذلك من خلال مفرداتها (قنبلة، تنفجر، جثة مفحمة، الموت، الخوف، الصدمة، العنف، الذبح...)، وعليه يمكننا القول إن رواية الأزمة استطاعت أن تنسج لنفسها لغة عنيفة، كونها تصور لنا وقائع مأساوية تكبدها المجتمع الجزائري خلال محنته، ولهذا فالروائي بشير مفتي قد وظف معجماً متنوعاً تراوح بين المعجم الوجداني(الحبّ، اللقاء، الفراق، الماضي، الغربة...)، ومعجم العنف(الموت، الدم، الانفجار، القتل...)، وكذا معجم التهميش والاغتيال، ولكن المعجم الذي كان له حضوراً قوياً هو معجم العنف وذلك نظرا للموضوع المطروح. وبالتالي فالسارد استخدم ألفاظ ذات دلالات وإيحاءات عميقة، استطاعت أن تصور حجم المعاناة، وعبرت بصدق عن هول الأزمة وخطورتها.

الخاتمة:

من خلال دراستنا لرواية "المراسيم والجنائز" لـ "بشير مفتي"، والتي حاولنا من خلالها استنباط تجليات الأزمة فيها ، توصلنا إلى جملة من النتائج نذكرها في النقاط الآتية:

- ✓ تمثل الرواية شكل من الأشكال الأدبية المهمة في الساحة الأدبية، والرواية الجزائرية هي الأخرى كمثيلاتها العربية استطاعت أن تحدث صدى واسعاً سواءً المكتوبة باللغة العربية أم الفرنسية.
- ✓ نشأت الرواية الجزائرية نتيجة خلفيات اجتماعية وثقافية وسياسية، فقد واكبت جلّ التحولات الطارئة على المجتمع الجزائري.
- ✓ تميزت فترة التسعينات بظهور نوع جديد في الكتابة الروائية تمثل في رواية الأزمة، والذي اصطلح عليها عدة تسميات، رواية المحنة، رواية الأزمة، الرواية الاستعجالية...إلخ
- ✓ يعد العنوان بمثابة المفتاح السحري الذي يحفز القارئ على استكشاف الرواية والتوغل فيها.

- ✓ عالجت رواية "المراسيم والجنائز" مختلف الأزمات الوطنية، لهذا فقد احتوت الرواية عدة مواضيع منها العنف، الغربة، الحب، أزمة المثقف...، وغيرها من المواضيع التي جاءت معبرة بشكل كبير عن أوضاع المجتمع الجزائري خلال العشرية السوداء.
- ✓ جاءت لغة الرواية عنيفة ، توحي بالألم والمعاناة، فهي تثير التساؤلات أكثر مما تقدم الإجابات، ومع هذا نلمس فيها شاعرية تنعم بالأحاسيس والعواطف، فاتسمت بذلك بجمال طافح وتخيل رائع عبر عن قدرة الروائي وإبداعه الفني.

الهوامش:

[1] بوذيبة إدريس، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط 1، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000م، ص 51.50.

[2] حبيلة الشريف، الرواية والعنف دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط1، علم الكتب الحديث، الجزائر،2010م، ص 2.

[3] ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ط 4، دار صادر، بيروت، د س، ص 271-272-273

[4] آبادي الفيروز، القاموس المحيط، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009 م، ص 1297.

[5] عبد الرحيم محمد عبد الرحيم، دراسات في الرواية العربية، ط 1، دار الحقيقة للإعلام الآلي، بيروت، 1990 م، ص 3.

[6] سعيد حجازي سمير، النقد العربي وأوهام رواد الحداثة، ط 1، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص 297.

[7] مفقودة صالح، أبحاث في الرواية العربية، ط 1، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، 2008م، ص 2.

[8] مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية، د ط، عالم المعرفة، الكويت، 1990م، ص 11.

[9] ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ج 7، ط 1، دار صادر، بيروت، 2005 م، ص 16.

[10] آبادي الفيروز، القاموس المحيط، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، ص 1087.

[11] فريد عيشوش، الاتصال في إدارة الأزمات" حوادث المرور أنموذجا"، د ط، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 68.

[12] المرجع نفسه، ص 69.68

[13] حبيلة الشريف، الرواية والعنف، المرجع السابق، ص 1.

[14] المرجع نفسه، ص ن.

[15] بن قينة عمر، الأدب الجزائري الحديث، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص 196-197.

[16] بوذيبة إدريس، الرؤية والبنية في رواية الطاهر وطار، المرجع السابق، ص 31

[17] المرجع نفسه، ص 32.

[18] بن قينة عمر، في الأدب الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 198.

[19] المرجع نفسه، ص ن

[20] جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ط 1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2013م، ص 36.

[21] المرجع نفسه، ص 37.

[22] الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص 382.

[23] جبور أم الخير ، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، المرجع السابق، ص 333.

[24] المرجع نفسه، ص 328.

[25] منور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ط1، دار التنوير،الجزائر،2013م، ص129.

[26] الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 380.

[27] منور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 130.

[28] المرجع نفسه، ص ن.

[29] ينظر المرجع نفسه ، ص 138.

[30] الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، المرجع السابق، ص 380.

[31] منور أحمد، الأدب الجزائري للسان الفرنسي، المرجع السابق، ص 139.

[32] المرجع نفسه، ص ن.

[33] المرجع نفسه، ص 140.

[34] المرجع نفسه، ص 141.

[35] المرجع نفسه، ص141

[36] بن زايد عمار، النقد الأدبي الجزائري الحديث، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م، ص 64.

[37] بلعابد عبد الحق، عتبات(جرار جنيت من النص إلى المناص) تق سعيد يقظين، ط 1، منشورات الاختلاف، 2008م، ص 44.

[38] المرجع نفسه، ص ن

[39] قطوس بسام موسى، سيميائية العنوان، ط 1، دائرة المطبوعات والنشر، عمان، 2001م، ص 33.

[40] صدوق نور الدين، البداية في النص الأدبي، ط 1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1994م، ص 70.

[41] مفتي بشير، المراسيم والجنائز، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1998م، ص 9.

[42] المصدر نفسه، ص 10.

[43] المصدر نفسه، ص 11.

[44] المصدر نفسه، ص 49.

[45] المصدر نفسه، ص 17.16.

[46] المصدر نفسه، ص 10.

[47] المصدر نفسه، ص 80.

[48] المصدر نفسه، ص 21.

[49] المصدر نفسه، ص 27.

[50] المصدر نفسه، ص 71.

[51] المصدر نفسه، ص 82.

[52] المصدر نفسه، ص ن.

[53] المصدر نفسه، ص 16.

[54] المصدر نفسه، ص 28.

[55] المصدر نفسه، ص 68.

[56] المصدر نفسه، ص 19.

[57] المصدر نفسه، ص 13.

[58] المصدر نفسه، ص 15.

[59] مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية، المرجع السابق، ص 111.

[60] مفتي بشير، المراسيم والجنائز، المصدر السابق، ص 19.18.

[61] المصدر نفسه، ص 97.

[62] المصدر نفسه، ص 21.

[63] المصدر نفسه، ص 82.

[64] المصدر نفسه، ص 49.

قائمة المصادر والمراجع:

1. آبادي الفيروز، القاموس المحيط، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م.
2. آبادي الفيروز، القاموس المحيط، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009 م.
3. بلعابد عبد الحق، عتبات(جيرار جنيت من النص إلى المناص) تق سعيد يقظين، ط 1، منشورات الاختلاف، 2008م.
4. بن زايد عمار، النقد الأدبي الجزائري الحديث، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م
5. بن قينة عمر، الأدب الجزائري الحديث، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.
6. بوذيبة إدريس، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط 1، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000م.
7. جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ط 1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2013م.
8. حبيلة الشريف، الرواية والعنف دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط 1، علم الكتب الحديث، الجزائر،2010م.
9. سعيد حجازي سمير، النقد العربي وأوهام رواد الحداثة، ط 1، مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.
10. صدوق نور الدين، البداية في النص الأدبي، ط 1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1994م.
11. الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006م.
12. عبد الرحيم محمد عبد الرحيم، دراسات في الرواية العربية، ط 1، دار الحقيقة للإعلام الآلي، بيروت، 1990م.
13. فريد عيشوش، الاتصال في إدارة الأزمات" حوادث المرور أنموذجا"، د ط، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
14. قطوس بسام موسى، سيميائية العنوان، ط 1، دائرة المطبوعات والنشر، عمان، 2001م.
15. مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية، د ط، عالم المعرفة، الكويت، 1990م.
16. مفتي بشير، المراسيم والجنائز، ط 1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1998م.
17. مفقودة صالح، أبحاث في الرواية العربية، ط 1، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، 2008م.
18. ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ط 4، دار صادر، بيروت، د س.
19.ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ج 7، ط 1، دار صادر، بيروت، 2005 م.

20. منور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ط 1، دار التنوير، الجزائر، 2013م.